

الاستقرار، وذلك بأن يفرض النحو على الكلمات ترتيباً لا يتغير، أو بأن تكون العادة قد جرت باتخاذ ترتيب بعينه في جميع الجمل التي من نوع واحد (١).

فإذا أراد العربى أن يعبر عن انفعاله حاول أن يغير من الترتيب المألوف للكلمات داخل الجملة، ومن مظاهر التغيير كذلك، الانتقالات الفجائية التي يحدثها المتكلم في داخل الجملة كعطف الاسم على الفاعل، أو الانتقال من الغائب إلى المخاطب، أو تفكيك كتلة الجملة المتماسكة، وفصم ارتباطها بغتة ثم جعل نصفها التالى يسير على خطة جديدة لا صلة بينها وبين النصف الأول منها.

على أن اللغة مع كونها دائبة على المحافظة على قوتها المعبرة، ومحاولة التعبير عن انفعالات المتكلم، بهاتين الوسيلتين التغيير والإضافة، فإن فى اللغة كثير من الألفاظ والعبارات لم يتح لها ما أتيح لأخواتها، ولم تستطع أن تصمد أمام عوامل الزمن، ولا أن تقبل ما قبلته أخواتها من التغيير والإضافة.

ويبدو أن مستخدم اللغة فى فترة متقدمة نتيجة لحاجته أضاف ألفاظاً للتركيب وكرر أخرى ثم بمرور الزمن أصبح هذا الاستخدام عرفاً شائعاً بين الناس خصوصاً الكتاب والشعراء فعبروا بالاستخدامات نفسها عند تكرار الحال الذى عاشه المستخدم الأول ثم جاء النحاة واستقرءوا المستخدم من اللغة وقاسوه على تراكيب عدّوها نموذجاً فأشاروا بالتقديم والتأخير والتوكيد اللفظى والمعنوى والبدل... إلخ.. وفى كثير من الأحيان نستطيع أن نلاحظ فرقاً بين لغة العقل والمنطق، ولغة الإرادة والرغبة ولغة الانفعال والحساسية (٢)

وقد أحسّ البلاغيون القدماء أنفسهم بشيء من ذلك ففرقوا بين الأسلوب الخبرى ويدخل فيه لغة المنطق والأسلوب الإنشائى وهو لغة الإرادة

(١) اللغة، فندريس، ترجمة: الدواخلى والقصاص، مكتبة الأنجلو، ص ١٩٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٨٢